الأدب وقضية فلسطين

بقلم الدكتور مهدي عدم

للادب معنيان او اطلاقان ، الادب بمعناه الاخص ، وهو الذي اصطلح الكتاب من قديم على انه التعبير الجميل عن المعنى الاصيل او الصورة الرائعة للفكرة الطارئة ، او الابداع في التعبير والتصوير لخواطر النفس . وهو في نطاق هذا المعنى لا بد ان يمس العاطفة الانسانية ، وان يهز مشاعرها ، فيجتذب قارئه او سامعه عن طريق الوجدان ، اكثر مما يقنعه عن طريق الحجة والبرهان . ويتمثل الادب بهذا المعنى في الشعر ، والقصة بانواعها ، والمقالة الادبية .

وهناك الادب بمعناه الاعم ، وهو يشمل الادب بمعناه الاخص ، مضافا اليه الوان اخرى من الكتابة ، تختلف عنه في عدم اعتمادها على العاطفة ، مستعيضة عنها اسلوبا اخر في اجتذاب القارىء او السامع ، هو منطق الحجة والبرهان . ويدخل في نطاق هذا المفهوم للادب عديد من الكتابات في فروع المعرفة الانسانية المتصلة بالتاريخ والاجتماع والفلسفة والسياسة ، بل المتصلة بالادب نفسه . فالبحوث الادبية وتاريخ الادب ، والنقد الادبي ، لا استطيع ان اسميها ادبا بالمعنى الاخص ، لانها لا تقوم على جمال التعبير ، والابداع في التصوير ، والتحليق في الخيال ، واجتذاب القارىء بسحر الكلمة وروعة الاسلوب ، وانما تعتمد على المنطق الذي يخضع الكاتب لمقاييس تختلف عن مقاييس الاديب ، وترتفع فوق اقناع الوجدان .

ونحن مع ذلك لا ندخل في نطاق الادب بمعناه الاعم كل ما يكتب في التاريخ او السياسة او الفلسفة او الاجتماع ، فقد يصل ما يكتب في هذه الفروع الى درجة من الدقة في التفكير ، والقصد في التعبير ، والخضوع لمقتضيات العلم ، الى درجة تقربه من العلوم الرياضية ، وتخليه من جمال التعبير الادبي ، فيصبح بذلك علما لا ادبا .

ومن اليسير تحديد خطوط فاصلة بين الادب بمعناه الاخص ، والادب بمعناه الاعم ، في كثير من الموضوعات ، ولكن بعض الموضوعات تتماس فيها الخطوط المحددة ، واحيانا تتداخل ، وربما اتحدت . فموضوعات القومية العربية ، والوحدة العربية ، والاستعمار ، والاشتراكية ، والقنبلة الذرية ، وتحديد النسل ، يلتقي في كثير مما يكتب عنها الادب بمعناه الاخص والادب بمعناه الاعم ، وقد ينفرد الادب الاخص بفنونه التعبيرية عنها شعرا ومقالة وقصة ومسرحية ، وقد ينفرد الادب الاعم بما يكتب فيها على اساس من العلم والتاريخ والاحصاء والحجج المنطقية .

والموضوع الذي اتحدث عنه في مؤتمركم الموقر ، وهو « قضية فلسطين » في مقدمة الموضوعات التي تناولها الادب بمفهوميه الخاص والعام . فعند الكلام عن « وعد بلفور » مثلا نلتقي بالادب القانوني الذي يحلل هذا الوعد ، ويفنده على اساس قانوني تشعر فيه بالحجج والادلة من غير عرض تصويري بلاغي يدخله في نطاق الادب بالمفهوم الخاص . ومع ذلك نجد عرضا لهذا الوعد المشئوم يتناوله من الناحية السياسية ، متتبعا جذوره الاولى في الحركة الصهيونية ، وموضحا ما يترتب عليه من انتقاص وحرمان لاهل البلاد التي صدر بشأنها هذا الوعد المشئوم ، انتقاص والى جانب ما كتب عن « وعد بلفور » من الناحية القانونية والناحية السياسية نجد عشرات من النصوص التي تناولته من الناحية الادبية ، معتمدة على جمال التصوير وقوة التأثير ، كما يقول مثلا مصطفى وهبي التل في نغمة حزن واسى على مصير بلاده ، واهلها العرب من مسلمين ونصارى :

يـــارب ان (بلفور) انقذ وعـــده
كـم مسلما يبقى وكـم نصرانـي !
وكيان مسجد قريني ، من ذا الذي
يبقـي عليه اذا ازيـل كيـاني ؟
وكنيسة العـذراء ، ايـن مكانهـا
سيكون ؟ ان بعـث اليهود مكانـي ؟

او كما يقول ابراهيم الدباغ (ديوان الطليعة) في نقمة ساخطة غاضبة :

ما وعد (بلفور) من امر السماء ، ولا
في الجدب من ارضنا رزء لمحتطب ،
هل وعد (بفور) تشريع ، اذا فرطت
اغلوطة منـه تـدعو الناس للعجب ؟
مـا حكمة بعـد احكام السماء ، ولا
يرضى بـه بعد حكم الله غير غبي .
يحـوطه باسمـه القـانون ، معتصمـا
بنصـه ، ممعنـا كالفيصـل الذرب .

او كما يقول جورج صيدح في سمو وانفة :

مهـــلا خلائف (بلفور) الكريم لقد
جاوزتمو شـأوه فـي حلبـة الكـرم
حامي حمانا ، حمانا الله منك ومـن
وصـاية فرضتهـا عصبـة الامـم
اكـل شأنك ارغـام الشعوب ، وان
تقوم فيهـا مقـام الخصم والحكم ؟
مهـد النبـوة نابى ان تـدنسه ،
ان نـام فيه بنـو صهيون لـم تنم .

او كما يقول ابراهيم طوقان في تهكم وسخرية :

قـــد شهـدنا لعهـدكم بالعدالـة
وختمنـــا لجنـدكم بالبســاله .
وعـرفنا بكـم صديقـا وفيـا ،
كيـف ننسى انتدابه واحتلاله !
وخجلنـا مـن لطفكم يـوم قلتم
وعـد (بلفـور) نـافذ لا محـاله .
كـل افضالكم علـى الرأس والعين ،
وليست فـي حـاجة لدلالـه ،
ولئـن سـاء حالنـا فكفـانا
انكـم عندنـا باحسـن حالـه ،
غيـر ان الطـريق طـالت علينـا
وعليكم ، فمـا لنـا والاطـاله ؟
اجلاء عن البلاد تـريدون فنجلو ؟ ام محقنا والازاله !

وهكذا نستطيع ان نسوق الامثلة الكثيرة للموضوع الواحد في قضية فلسطين ، يتناوله الادب الخاص ، كما يتناوله الادب العام ، القانوني او السياسي . نجد ذلك في وصف المؤتمرات التي عقدت قبل النكبة ، وفي وصف مشروعات التقسيم قبل النكبة وبعدها ، ونجد ذلك في وصف الثورة العربية في مراحلها المختلفة ، كما نجده في وصف

حرب فلسطين ووقوع النكبة . ونجده في الحديث عن اللاجئيـــن وقضيتهم ، وعن هجرة اليهود وتسللهم . ولن يتسع الزمن لاكثر مـــن امثلة عابرة لما نقول .

فمن الادب القانوني ، الخاص بخلف الوعد من الانجليز ،الوثيقة الرابعة عشرة ، من « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » التـــي نشرتها جامعة الدول العربية . وفي هذه الوثيقة رد على بيان رئيـس القضاة البريطاني في مؤتمر فلسطين الذي عقد في لندن سنة ١٩٣٩ وقد جاء فيها :

« ... ان مندوبي العرب ... يدهشهم ويؤسفهم ان يروا رئيس القضاة يأخذ بوجهة النظر القائلة ان فلسطين كانت مخرجة من المنطقة التي تعهدت بريطانيا العظمى في مكاتبات مكماهون ان تعترف باستقلال الحكومات العربية وتؤيده . وهم يعتقدون ـ بعد درس البيان والمذكرة المشار اليهما بعناية ـ ان رئيس القضاة لعله فاته المدلول الحقيقـي لمكاتبات تبودلت كلها باللغة العربية ، وقد تداول احد مندوبي العرب ـ رغبة في اصلاح هذه الاغلاط وازالة اثارها ـ مع الخبير الذي ندبتـــه حكومة الملك ، وقدم اليه بيانا بالاغلاط التي وقعت في الترجمة ،وبما بين النص العربي والنص الرسمي الانجليزي من التفاوت ...

« قال رئيس القضاة في الفقرة السابعة من مذكرته . انه نظـرا للصفة المقدسة لفلسطين فان من الواضح ان بريطانيا العظمى لم يكـن لها حق ولا سلطة في سنة ١٦١٥ يخولانها ان تعد ، في حالة نجـــاح الحلفاء ، في انينتزعوا من الدولة العثمانية ارضا لها مثل هذه الاهمية للعالم المسيحي . وان يسلموها الى دولة اسلامية اخرى مستقلة، من غير ان يحصلوا اولا على كل نوع من الضمانات لحماية الاماكن المقدسة، من مسيحية ويهودية ، وكفالة حرية الوصول اليها على الاقل بقدر مـا كان ذلك مكفولا في عهد الاتراك انفسهم . ويستنتج سيادته من ذلك ان مما لا يتصور ان يكون السيرهنري مكماهون قد قصد ان يعطي الشريف وعدا لا قيد فيه ولا شرط بان تكون فلسطين داخلة في منطقة الاستقلال العربي ...

ويقرر مندوبو العرب بكل احترام ان هذا الاستنتاج قائم على خطأ مادي في تصور الموقف ، وذلك اولا لان سلامة الاماكن المقدسة ، وحريـة الوصول اليها ، منصوص عليهما بصراحة في معاهدة برلين المعقودة سنة ١٨٧٨ وهي معاهدة دولية معترف بها في اوسع نطاق ، ومقيدة بهـــا تركيا ، وهي تسري من تلقاء نفسها على كل دولة ينتقل اليها ما كـــان للدولة العثمانية من سيادة في فلسطين . وثانيا لان نص المكاتبات نفسها يبين بجلاء ان المقرر ان تنتفع حكومات الدول العربية المستقلة بالمشورة البريطانية ، وبمساعدة الموظفين البريطانيين في اقامة نظام حكم صالح. وهذا وحده كان ضمانا كافيا ، ينتفي به كل خطر ، تقوم دولها . وثالثا لان السير هنري مكماهون وضع تحفظا صالحا فيما يتعلق بالاماكـــن المقدسة ، وذلك في كتابه المؤرخ في ٢٤ اكتوبر ١٩١٥ وفيه يقول : (ان بريطانيا العظمى تضمن الاماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي ،وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .) »

وحين يعالج الشاعر عبد الرحيم محمود هذا الموقف يقول :

واتى الحليف وقـــام فـــي اعتابنا ... غـــدر الحليف ، واي وعـــد صـــانه
متحيرا ، انـــا هـــدى المتحيـــر ، ... يومـــا ، وايـــة ذمـــة لـــم يخفـــر ؟
واستنصـــر العـــرب الكرام ، وانهـــم ... لمـــا قضـــى وطـــرا بفضل سيوفنا
غـــوث الطـــريد ونصـــرة المستنصـــر ، ... نســـى اليـــد البيضاء ، لـــم يتذكر .
واذا عتـــاق العرب تورى في الدجى ... قدحا وتصهـــل تحت كل غضنفـــر ،
واذا السيوف كـــأنهن كـــواكب ... تهـــوى ، تلامع فـــي العجاج الاكدر ،
رجحت موازين الحليف ، ومن تكن ... معـــه يرجـــح بالعظيم الاكثـــر ،
وبنت لنا اسيـــافنا صـــرحا فلـــم ... يحفظ جميل العرب ، يـــا للمنكر

ويرد شاعر المهجر ، ايليا ابو ماضي ، على زعم قاضي قضـــاة بريطانيا في حماية الاماكن المقدسة المسيحية، في قصيدته التي يقول فيها:

ديـــار السلام وارض الهنـــا ... يشـــود على الكل ان تحزنا،
فخطب فلسطين خطب العلا ، ... وما كان رزء العلا هينـــا ،
سهرنا له فكـــان السيـــوف ... تحـــز باكبادنـــا ها هنـــا ،
وكيف يزور الكرى اعينـــا ... تـــرى حولها للـــردى اعينا ؟
وكيف تطيـــب الحيـــاة لقـــوم ... تســـد عليهم دروب المنـــى ؟
بلادهم عـــرضة للضيـــاع ... وامنهـــم عرضـــة للفنـــا .
يريد اليهـــود بـــان يصلبوها ، ... وتأبـــى فلسطين ان تذعنـــا .
أأرض الخيـــال وآيـــاته ، ... وذات الجلال ، وذات السنا ،
تصير لفـــوغائهم مســـرحا ... وتغـــدو لشـــذاذهم مسكنـــا ؟
فقـــل لليهـــود واشياعهم : ... لقـــد خدعتكم بـــروق المنـــى .
الا ليت (بلفـــور) اعطـــاكمو ... بـــلادا لـــه ، لا بـــلادا لنـــا !
(فلندن) ارحب مـــن قدسنا ، ... وانتم لمـــن شـــاء ان يسكنا ،
فان تطلبـــوها بسمـــر القنـــا ... نردكمـــو بطـــوال القنـــا ،
ففـــي العربي صفـــات الانام ، ... سوى ان يخاف وان يجبنا .
وان تحجلوا بيننـــا بالخداع ... فلـــن تخدعوا رجـــلا مؤمنـــا ،
وان تهجـــروها فـــذلك اولـــى ... فـــان فلسطين ملـــك لنـــا ،
وكانت لاجدادنـــا قبلنـــا ، ... وتبقـــى لاحفادنـــا بعدنـــا ،
وان لكـــم بسواهـــا غنـــى ، ... وليس لنـــا بسواها غنـــى .
فلا تحسبوهـــا لكـــم وطنـــا ، ... فلـــم تـــك يومـــا لكـــم موطنا،
وليس الذي نبتغيه محـــالا ، ... وليس الذي رمتمو ممكنـــا .
واذا ابيتـــم فاوصيكمـــو ... بان تحملـــوا منكـــم الاكفنـــا ،
فانا سنجعـــل مـــن ارضهـــا ... لنـــا وطنا ، ولكـــم مدفنـــا .

ونأخذ مثلا اخر في الفرق بيـــن الادب بمفهومه العـــام والادب بمفهومه الخاص ـ هو مشكلة اللاجئين . فالدكتور سيد نوفل ، الامين العام المساعد لجامعة الدول العربية يكتب (في تقديمه لكتاب « مشكلة اللاجئين العرب » للدكتور ادوارد سيدهم) :

« مشكلة اللاجئين العرب هي في الواقع مشكلة الشعب العربـي الفلسطيني ، الذي اخرج من وطنه بغيا وعدوانا ، لتحتله جماعات من اليهود المواطنين في بلاد مختلفة بارجاء العالم .

« فاللاجيء الفلسطيني العربي يسمى كذلك تجوزا ، اذ ليس لمثل هذا اللجوء نظير في تاريخ البشرية ولا في القاموس السياسي .

« وكل ما عرف من ألوان اللجوء الاخرى ، نتيجة الاضطهاد علـى اساس الجنس او الدين او السياسة ، لا يمت الى هذا اللون الفريـد من اللجوء . الذي يسمى به الشعب العربي الفلسطيني مجازا او احالة.

« ولا يمكن لذلك ان تحل مشكلة هؤلاء اللاجئين العرب ، كما حلـت مشكلة اللاجئين في اوروبا وآسيا وغيرهما ... فقضيتنا قضية شعب اخرج من وطنه بوسائل استعمارية عدوانية ، ولا بـــد ان يعود الـــى الوطن ، وخاصة في هذا العصر الذي يسمى بحق عصر تصفية الاستعمار.

« واذا كانت مشكلة اللاجئين هي مشكلة فلسطين ، لم يكن عجبـا ان تبذل اسرائيل والصهيونية السياسية العالمية والاستعمار والاستغلال الاجنبي الطامع في المنطقة العربية لم يكن عجبا ان تبذل هذه القـوى العدوانية ـ متحالفة متآمرة ـ الجهود المتصلة في هـــذه السنوات الخمس عشرة ، لتصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين ، سبيلا لتصفية قضية فلسطين ، والقضاء على حقوق الشعب العربي الفلسطيني فـــي العودة الطبيعية المشروعة الى وطنه السليب » .

وحين يتناول الادب الخاص قضية اللاجئين يقول مثلا على لسان ابو سلمى (ديوان اغنيات بلادي) :

زحفت الثم ارضي وهي باكيـــة ... والقلب باك وراحت تنتشي القبل،

وعدت انشق من عطر التراب هوى ... في طله التقت الاجداد والرسل
اهلي على الدهر تدميني جراحهم ... في حبهم يتساوى العذر والعذل
خيامهم في مهب الريح معـولة ... ودورهم من وراء الدمع تنتهـل
تفاذفتهم دروب العمر داميـة ... وانكرتهم ربوع الاهل والملـل
على المشارف اعراض ممزقـة ... وفي كهوف الربى الانسان مبتذل
في كل ارض شظاياهم مشردة ... وتحت كل سماء معشر ذلـل
اطوف احمل انى سرت نكبتهـم ... كانني طيف سار والحتمي طلل
يا فتية الوطن المسلوب ، هل امل ... على جباهكم السمراء يكتمل ؟
انتم بنو الشعب،لا الطغيان يرهبكم ... ولا زعيم على الشيطان يتكـل
تبنون امجاده ، والخلد رفرفها ... كانما هـبـي بالاباد تتصـل
ا نالغريق الى العلياء مظلمـة ... ولن نضل وفي ايديكم الشعـل

ويقول محمود حسن اسماعيل (ديوان نار واصفاد)

تلفتي ها همو في الارض اخوتنا ... تعاورتهم خطوب الدهر والغيـر
كانوا باوطانهم كالناس ، وانتبهوا ... فما همو من وجود الناس اذكروا
مشردين بلا تيه ، فلو طلبـوا ... تجدد التيه في الافاق ما قدروا
يلقى الشريد لجاج الارض واسعة ... لكنهم بمدى انفاسهم حشـروا
في خيمة من نسج الوهم لفقها ... ضمير باغ بمجد العرب يأتمر
اوهي واوهن حبلا من سياسته ... لو مسها الضوء لانقدت بها الستر
تعدو الرياح بها نشوى مقهقهـة ... كانها بشقوق النمل تنحـدر
او انهـا حين تذروها سنابكها ... اضغاث شيء تلاشى ما له اثر
تهتز ان ذاقت الاحلام صفحتها ... بنسمة بظلال الخلد تاتـزر
وتنشب الذعر في الاوتاد هاربة ... في صدر ساكنها ان زارها المطر

وارجو الا يكون من الغرور ان اقتبس هنا لنفسي بعض ما قلت في وصف اللاجئين على اثر زيارة لهم :

كـل حلم جدنـا به للئيم ... كـان ضعفـا وذلـة وانـاما
غفلت عنهـم الضمائر حتـى ... حققـوا بالخيانـة الاحـلاما
واذا ما شربت كاس خـداع ... من عدو فقد عضضت اللجاما
واذا مـا حنيت ظهرك ذلا ... فاقبل السرج فوقه والحزاما
شردوا اهلنا ، وقـد ابدلوهـم ... من بيوت ومـن قصور خياما
يتموهم طفـلا وكهـلا جميعـا ... ان يتم الاوطان انكى غـراما
يطعمون الهـوان نصف عـرايا ... من ثياب لا تستر الاجسـاما
ان رأوا مزقة لتستر صـدرا ... لم يبالوا الا يـروا اكمـاما
يلبسون النهار حتـى اذا ما ... اقبل الليل يلبسون الظلامـا

وننتقل الان الى مثال اخر في الادب الفلسطيني لنرى كيف يعالجه المؤلف الفني ، وكيف يعالجه الاديب الفنان .

فموضوع الهجرة الى فلسطين قد استوعب عديدا مـن الكتب ومئات من المقالات ، كما استوعب مئات من القصائد . ففي كتـاب الدكتور احمد معوض مثلا « لن تكون لاجئين » يكتب المؤلف :

« يعتقد الصهيونيون ان اسرائيل ولدت لتسوعب كل يهود العالم. واكد ذلك القول صراحة كتاب « حقائق عن اسرائيل » (الذي اصدرته مصلحة الاستعلامات الاسرائيلية سنة ١٩٥٧) اذ اعلن ان « سياسـة الباب المفتوح ستبقى على الدوام السياسة القومية ، فعندمـا تتعرض جماعة يهودية للتهديد في مكان ما من العالم ، فثمت استعداد دائـم لترحيلهم الى اسرائيل بغض النظر عن تكاليف ذلك . » اما بن غوريون فقد اعاد تاكيد ذلك في اول فبراير ١٩٥٩، اذ قال : « ان بقاء اسرائيل وسلمها لن يكفل الا بشيء واحد فحسب ، الا وهو الهجرة الجماعية.»

« وفي الواقع ان ثمة اسبابا تدفع الصهيونية الى هـذه الهجرة الجماعية . وفي مقدمة هذه الاسباب الحصول على طاقة بشرية تصلح للدفاع عن كيان اسرائيل من ناحية ، وللاستعداد للتوسع والعدوان مـن ناحية اخرى . ولذلك حصرت سلطات اسرائيل سن المهاجرين فيما بيـن (١٤) سنة و (٤٠) سنـة ، واشترطت ان يكـونوا مـن المـدربين عسكريا ، ومن اصحاب المهن الفنية والتدريبات الصناعية . وهي بذلك ترمي الى ضرب عصفورين بحجر واحد . فهي توفـر نفقات التدريب والتاهيل الداخلي ، وتستغني عن ايفاد البعثات للخارج . اذ ان فـي تجميع الصهيونيين المؤهلين مـن مختلف البلدان مـا يزيد من المستوى العلمي والثقافي في البلاد . »

ويكتب في الموضوع نفسه الدكتور صالح الاشتر في كتابه « فـي شعر النكبة » فيقول :

« فما يكاد الجنرال اللنبي يدخل القدس حتى يستقبل في مركز قيادته بالرملة اللجنة الصهيونية القادمة لدراسة الوضع في فلسطين، ثم تنطلق الآلة الصهيونية تجمع المال لتشتري الاراضي العربية مـن اصحابها باي ثمن ، وتسجلها ملكا ابديا للامة اليهودية جمعاء ، ثـم تقسمها قطعا وتؤجرها الى المهاجرين القادمين ، وتمنحهم القروض لبناء المساكن ، وتساعدهم على الاستيطان ، في ظل وارف من عطف حكومـة الانتداب الانكليزية . وفي اشهر قليلة كانت الارض الجرداء تتحول الـى مستعمرات زاهية وجنات عامرة بالمواطنين المهاجرين العاكفين على تعلم اللغة العبرية ، والخاضعين لعملية صهر قومـي تجمع اشتاتهم وتنسق امورهم وتوحدها .

« ونظم اليهود انفسهم في وكالة يهودية ترعاهم وتحمي مصالحهم، تشتري الارض ، وتبني المستعمرات ، وتفوز بامتياز البحر الميت وثرواته، وتبني لليهود ميناء خاصا في تل ابيب ، لتجـارتهم واقتصادهـم ... واليهود يتابعون تحصين المستعمرات ، ويستعدون للمعـركة المقبلـة ، ويستقبلون كل يوم افواج المهاجرين من كل صوب ، فيزدادون قـوة وتنظيمـا . »

ولا شك اننا نلاحظ الفرق بين النصين ، فثانيهما مـع عرضه التاريخي ادخل في الاسلوب الادبي ، وان كان لا يدخل في مفهوم الادب بمعناه الاخص ، ذلك المفهوم الذي نجده في النصوص الشعرية التـي تعرض لموضوع الهجرة اليهودية ، فلا تهتـم بالتواريخ ولا الاحصاء ولا اسماء الامكنة ، وانما هي تصوير للخطر ، وتجسيم للظلم والعدوان .

فهذا جورج صيدح يقول في لوعة واسى :

اضيف الهنا ، أن بيتي المباح ... صغير يضيق بضيف الهنـا
وزادي ـ اعيذك منه ـ جـراح ... اقمس فيـه فتات الضنـى
شهرت عليك لساني الصراح ... فاعيـا ، أأطول منه القنـا ؟
سالتك بعـد الفـدو الـرواح ... عسى البين يصلح مـا بيننا
ومـا ضـر لو زرت تل السفاح ... وعششت بيـن وكـور الخنا ؟
هنالك سربك يجني الريـاح ... ولا يسـال اللص عما جنى
كرهنك ضيفـا دجـى الوشاح ... دجـى الحواشي دجـى المنى
اذا وصفتك القوافي الفصـاح ... دعـوت عليها بـان ترطنـا

وهذا ابراهيم طوقان يقول في قصيدة جعل عنوانها « الرقم ١٠٠٠» ولكنه طبعا يستعمل الرقم هنا بمفهومه البلاغـي لا بمفهومه الرياضي ، على مثال استعمال القرآن الكريم للعدد في قوله تعالى : « وان يومـا عند ربك كالف سنة مما تعدون » ، وكقوله « استغفر لهم ،او لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . » فالمراد هـو الكثرة المطلقة . يقول :

ارى عددا في الشؤم لا كثلاثة ... عشر ، ولكن فوقه في المصائب
هو الالف، لم تعرف فلسطين ضربة ... اشد وانكى منه يوما لضـارب
يهاجر الف ، ثم الف مهربـا ... ويدخل الف سائحا غير آيب
والف جواز ، ثم الف وسيلـة ... لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفي البحر الاف كأن عبابـه ... وامواجه مشحونة بالمراكـب
بني وطني ، هل يقظة بعد رقـدة ... وهل من شعاع بين تلك الغياهب!

وعلي الجندي يصف هجرة اليهود بالداء النازل بالجسم السليم، وبالجراد الذي يأتي على الاخضر والهشيم :

صهيون داء اساة الداء ترهبـه ... لا تعدلن به سلا ولا جـربا
وهو الجراد اذا اخنى على بلد ... رعى ازاهيره واستاصل العشبا
ارجاله في فلسطين اذا بقيت ... ـ لا قدر الله ـ سماء الشرق منقلبا

واختتم مقارناتي بين أسلوب الادب الخاص والادب العام في قضية فلسطين بمثال له اكثر من مغزى :

فقد كتب الدكتور سيد نوفل في كتابه « السياسة العربية في مقاومة اهداف الصهيونية واسرائيل » (يونيه ١٩٦٣) فصلا عن دور المراة العربية في قضية فلسطين قال فيه :

« ودخلت المراة العربية ميدان الدفاع عن فلسطين . ومن اجل القضية العربية الاولى دعت رئيسة الاتحاد النسائي المصري الى عقد اول مؤتمر نسائي عربي في التاريخ . وقد اشتركت فيه مندوبات عن سيدات مصر وسورية ولبنان والعراق وفلسطين والاردن ، واتخذت فيه مقررات تؤيد قضية فلسطين وكفاح الفلسطينيين ومقاومة التقسيم ومعاونة الفلسطينيين ماديا وادبيا » . وكان هذا المؤتمر في سنة ١٩٣٨ وقد وصفه الشاعر محمد الاسمر بقصيدة جاء فيها :

يا بنات الشعر غني واهتفي ... للنجيبات بنات النجب
زانهن الله بالفضل ، فما ... حلية من فضة او ذهب
وكساهن من الاداب ما ... دونه كل الثياب القشب
قلت للقائل « ودعهن) : لا ... هن في القلب فرحب رحب
من حواه القلب لم ينأ وان ... حل في بغداد او في حلب
مصر ليست للعدو الاجنبي ... مصر ملك للحبيب الاقرب

وبعد فقد بقي أن اشير سريعا الى بعض المجالات الاخرى في الادب الفلسطيني وانا ادرك ان كلا منها جدير بعددٍ من المتحدثين . فاذا اوجزت فانما اوجز خضوعا لقيود الزمن .

فهناك القصة والمسرحية ، وفيهما من الادب الفلسطيني وفرة وافرة . ولولا حذري من أن اغفل بعض الكتاب لعددت العشرات منهم ، ولكنني لا استطيع أن اغفل اسم يوسف السباعي ، وعلي احمد باكثير وبرهان الدين العبوشي ، وحنا ابي راشد ، وعبد الحميد جودة السحار ، وهلال ناجي ، وبديع حقي . وقد فاز الدكتور بديع حقي ، منذ بضع سنوات ، بجائزة الدولة التشجيعية في القصة من المجلس الاعلى للفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ، وذلك عن مجموعة قصصه عن فلسطين .

ومما هو جدير بالتنويه ان هذا المجلس ، منذ عشر سنوات ، يقيم في كل عام مسابقات ادبية عن فلسطين ، في المقال ، والبحث الموجز ، والقصة القصيرة ، والمسرحية ذات الفصل الواحد ، والشعر. وترد اليه مئات النصوص ، ويفوز في كل فرع من هذه الفروع عشرة من المتسابقين . كما أن نادي القصة ، في مسابقاته السنوية تتقدم اليه قصص عن فلسطين .

واريد ان انوه كذلك بالبحوث العلمية التي تكتب عن ادب فلسطين بمفهوميه الخاص والعام . فهناك عدد ليس بالقليل من انتاج الاساتذة وطلاب الدراسات العليا . واذكر على حذر من النسيان وخوف من الاطالة بعضهم مثل الدكتور ناصر الدين الاسد ، والدكتور محمد طلعت الغنيمي ، والدكتور صالح الاشتر ، والدكتور عبد الملك عودة ، والدكتور اسماعيل راجي الفاروقي ، والدكتور عبد الحميد متولي ، والاستاذ محمد عزة دروزة ، والاستاذ كامل السوافيري .

وهناك الادب المسموع في الاذاعة الصوتية والمرئية ، وهو ادب يصل الى عشرات الملايين من الناس ، ولا يمكن ان تناقشه في ذلك مطبعة او ناشر . وقد جمعت من الاذاعة المصرية بيانات تذهل وتسعد ، في كميتها وتنوعها ، سواء في البرنامج العام ، او في صوت العرب ، او في برنامج مع الشعب ، او البرنامج الخاص باذاعة فلسطين . وفي كل من هذه البرامج ، الاحاديث التي يعدها المتحدثون المتخصصون ، والتعليقات والندوات ، والتمثيليات ، والاناشيد ، والاغاني . وكل فرع من هذه الفروع جدير بالدراسة والتنويه ، ولكن ابهر ما وقفت عليه هو البرنامج المسمى « بلادنا لنا » وهويتناول بالتعريف كل قرية او مدينة بفلسطين ، ويبرز معالمها الطبيعية ، ويتحدث عن نضالها ، كما ان الى جانبه برنامجا اخر باسم « فداء فلسطين » يتناول اسماء الشهداء واعمال البطولة .

واخر ما اختتم به كلمتي هو الاشارة مرة اخرى الى الادب السياسي ـ غير محدود بالمقالات والتحقيقات الصحفية ـ بل اضمنه الادب السياسي الرسمي ، فهو عنصر هام في حياة قضيتنا الكبرى ، فالتصريحات والخطب والبيانات التي يدلي بها رؤساء الدول العربية وملوكهم ، ورؤساء الوزارات والوزراء ، والخطب والمناقشات وكل ما يتصل بها ـ كل ذلك رصيد ادبي ضخم ، ذو شحنة قوية فعالة في خدمة القضية الفلسطينية ، سواء في ذلك مجال التوعية العربية نفسها ، بابقاء الشعلة متقدة لتضيء لابناء العروبة ، وكذلك مجال الدعوة والاعلام لمن يجهلون او يتجاهلون حقائق الوضع العربي الفلسطيني ، بابقاء الجذوة ملتهبة لتحرق كل من يجترىء على حقوقنا او يساعد في هذا السبيل .

ان البيان الذي القاه في مجلس الامة ، في الاسبوع الماضي ، السيد علي صبري رئيس الوزراء بالجمهورية العربية المتحدة ، عن الازمة مع المانيا الغربية ، هو من الادب السياسي المتصل بصميم قضية فلسطين ، وان الخطب والتصريحات التي صدرت عن الرئيس عبد السلام عارف ، بصدد فلسطين ، هي كذلك من الادب السياسي الذي يأخذ مكانه في التاريخ لادب هذه القضية .

وقد نشر في القاهرة مجلد يضم مقتبسات من الادب السياسي الفلسطيني ، جمعت من اقوال الرئيس جمال عبد الناصر . ولا يليق ان انتقصها قدرها باقتباس شذرات قصيرة منها ، فهي مجموعة جديرة بالقراءة المتئدة ، والدرس الفاحص ، على حدتها . وحسبي في بيان قدر هذه المجموعة انها تدل على ان مؤلفها قد صدر فيها عن ايمان يكفي في الدلالة على مبلغ رسوخه وعمقه انه لم يخطب خطبة ، او يصدر بيانا ، او يعط حديثا لصحفي عربي او اجنبي ـ ايا كان موضوع الخطبة او البيان او الحديث ـ الا سلك فيه سبيله الى قضية فلسطين.

فسواء كان يخطب في مصر او في سورية ، في القاهرة او في دمشق ، في الاسكندرية او في اللاذقية ، في بور سعيد او في حلب ، في الاتحاد السوفياتي او في الهند ، في تونس او في الجزائر ، في القوات المسلحة او في الجمعيات التعاونية ، في العمال او في الطلاب، في مصنع المطاط او في الكشافة ، في مجلس الامة او في المجلس التشريعي لغزة ، في الاحتفال بعيد الثورة او في الفلاحين حين توزيع الاراضي على المعدمين ، في اعلان الدستور او في مجلس اتحاد الدول العربية ، في الازهر او في الكلية الحربية ، في مؤتمر المحامين او في مؤتمر الصحفيين في عيد النصر او في الاحتفال بالسد العالي ، في توزيع الجوائز العلمية او في المهرجان الرياضي ، في الامم المتحدة او يوم يعلن قبوله لترشيح الامة الاجماعي لتجديد رئاسته للجمهورية ـ سواء في كل ذلك ، وقبل كل ذلك في كتابه الاول « فلسفة الثورة» ، وفي وثيقته التاريخية « الميثاق الوطني » ـ لا ينسى فلسطين الحبيبة، فلسطين السليبة فلسطين الابية ، فلسطين العربية ، التي قال عنها في كتابه لرئيس امريكا السابق كندي :

« اسمحوا لي ان اضع امامكم هذه الملاحظة التالية ، علها تساعد مترابطة على توضيح صورة سريعة للمشكلة :

« لقد اعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاع الاثنان ـ من لا يملك ومن لا يستحق ـ بالقوة والخديعة ، ان يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه ، فيما يملكه وفيما يستحقه . تلك هي الصورة الحقيقية لوعد (بلفور) الذي قطعته بريطانيا على نفسها ، واعطت فيه من ارض لا تملكها ، وانما يملكها الشعب العربي ، عهدا باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين . وعلى هذا المستوى الفردي ، فضلا عن المستوى الدولي ، فان الصورة على هذا النحو تشكل قضية نصب واضحة، تستطيع أي محكمة عادية ان تحكم بالادانة على المسؤولين فيها».

الدكتور مهدي علام